النحو العربي بين التعليم والتقعيد

The Arabic grammar between instruction and normative

الأستاذة: يسمينة عمارة

كلية الآداب واللغات

جامعة البليدة 2– علي لونيسي–

الملخص:

يدرس هذا البحث إشكالية انتقال النحو من التعليم إلى التقعيد عن طريق المصطلحات النحوية اللحن،العربية، والنحو، والإعراب،التي ظهرت في المرحلة الأولى لقيام النحو، والتي كانت سبباً في انتقال النحو من التعليم إلى التقنين، أما المرحلة الثانية فكانت تتضمن القياس والتعليل واللهجة، فكان اللحن السبب الرئيس في التعليم والتقعيد بسبب فساد الألسنة، وأدى عامل التقعيد إلى ظهور جدال بين النحاة والعلماء.

الكلمات المفتاحية: اللحن، التعليم، التقعيد، التعليل.

Abstract:

This research has reviewed problematic of transfergrammarfrom instructiontonormative, caused methodthe grammar terms, syntax,solecism, and Arab,desinence, with appeared in first of stage.

But in second stage the terms are: analogy, dialect, andjustification, and thesolecismwas Principe cause of beginning ofinstruction and normative, and the normativewasfactorwhichled to discussion between grammarians and scientists.

Key words:

Solecism, Instruction, Normative, Justification.

لقد مر النحو العربي بمراحل بسيطة في تبلوره، حتى أبوابه لم تك ناضجة دفعة واحدة، بل جاءت الواحدة تلوى الأخرى، فالنحو ظاهرة اجتماعية تكون وفقاً لجهود كبيرة، لعدد من المفكرين وينشأ لعدة أسباب يحكمها الواقع الاجتماعي أي من الفرد والمجتمع، فالنحو مرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة، فهو يبدأ باللغة وينتهي باللغة، وتعتبر ظاهرة القداسة للغة المحرك الأساس للأسباب المؤدية إلى نشأته.

هناك نوعان من النحو الفني والعلمي فالأول:" جزء من اللغة وعنصر أساسي من عناصر تكوينها كلغة مهذبة وراقية، وهو يكاد يكون فطريا وإن كان في الأساس في وجوده المجهود العقل"[1]، أما الثاني:" فيقصد به استنباط قواعد النطق الصحيح بناءًعلى دراسة اللغة، وفهم أساليبها وإدراك أسرار طرق الأداء فيها ثم تسجل هذه القواعد لدراستها."[2]

النحو الفني إذاً يسبق النحو العلمي فالأول أساس وتخطيط وتفكير، والثاني تطبيق وأداء فنجد فن الهندسة أسبق من الهندسة العلمية، لذلك فإن النحو موجود في كل اللغات والنحو العلمي يبدأ عندما ينهي النحو الفني، فوجود النحو وجود طبيعي منذ ولادة اللغة العربية فيُستنبط منها ثم يصبح قانون يطبق عليها فهو منها وإليهافمن الاستنباط إلى التعليم، فكيف انتقل النحو من التعلم إلى التقعيد؟.

1- مرحلةتعليم النحو:

أ- مصطلح اللحن:

جاءت المصطلحات النحوية بالتدرج وأول ما ظهر منها مصطلح اللحن، والعربية، والنحو، إذ تعتبر هذه المصطلحات الركيزة الأساسية لتأسيس قواعد اللغة العربية، ويعد اللحن من المصطلحات التي أطلقت على النحو وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال" تعلموا الفرائض والسنة واللحن كما تتعلمون القرآن."[3]

كان الاهتمام باللحن منذ البدايات الأولى لنشأة النحو، لأنه ظاهرة غير مستحبة عند العرب، فكانوا ينفرون منه فأخذت هذه المفردة تأخذ طابعها الاصطلاحي وبدأت تدخل في الدراسات النحوية، وأصبح النحاة يتعجبون من استعمال الناس لها، وبدأ اللحن يأخذ معناه النحوي ويُعرف به الصواب من الخطأ، بعدما كان له ستة معان متضمنة في لفظة واحدة هي:" الخطأوالإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض[4]فانحصر اللحن في المعنى النحوي لأنه متضمن في اللغة العربية، وهذه الأخيرة مستعملة على جميع ألسنة الناس وليست كمعنى الغناء لأن هناك فئة خاصة به،يرى ابن الأنباري أن الكلمات تعرف معانيها بالأضداد فيقول:" اللحن حرف من الأضداد، يقال للخطأ لَحْن والصواب لحن. فأما كون اللحْن على معنى الخطأ فلا يحتاج فيه إلى شاهد، وأما كونه على معنى الصواب فشاهده قول الله عز وجل:چ پ پپ پ پ ٻ ٻپپچ"[5]"[6]،وقدقال أبو عبيدة:" قول عمر: تعلموا " اللحن"؛أي: الخطأ في الكلام لتحترزوا"[7]

تصدى النحاة للحن فحاربوه محاربة شديدة، لأن هذا المصطلح ظهر في المجتمع العربي بصورة رهيبة، فعُرف بالخطأ في الكلام، فعم التساؤل والتعجب من سَريان هده المفردة، فتنبه له الخاصة من الناس، فقال عمر بن عبد العزيز:"أكاد أضَرس إدا سمعت اللحن"[8]، كما تنبه له العامة فقال أعرابي:" كيف يكون الخطأ في الكلام مستحسنًا والصواب مستسمجًا، والعرب تقرب المعربين وتتنقص اللحنين وتبعدهم."[9]

اللحن ظاهرة فردية تحدث دون إرادة من صاحبها، ولا رقابة من المجتمع أو من الجماعة اللغوية، ولكن حين يجري على الألسن عند الطبقة المثقفة المعول عليها في المجتمع يمكن أن يكون لها أثر وصدى كبيرين، باعتبارها الطبقة التي يعتد بها، فظاهرة اللحن موجودة قبل الإسلام، نتيجة اختلاط العرب بالأمم الأخرى عن طريق التجارة بفتح أسواق عربية عند الأجانب، أو بالتبادل السلع وخاصة البخور والأواني والتوابل، إضافة إلى مبدأ المجاورة إما للكسب أو للعمل وإما عبيداً لسادة العرب مثل العبيد القادمون من الحبشة لخدمة أسياد العرب كقريش وغيرها، وفي هذا الصدد يقول أبوبكر الزبيدي:"ولم تزل العرب تنطق على سجينها، في صدر الإسلام وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه إرسالا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ففشا الفساد في اللغة العربية واستبان منه الأعراب الذي هو حَليُها."[10]

عندما نزل الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وامتدت الدعوى الإسلامية ودخل الأعاجم إلى الإسلام، بدأ اللحن ينشر فاختلطت الألسن فضعف النطق بمخارج الحروف الأصلية، واستعصى على بعضهم نطقها، وذكر الأصمعي عن عيسى بن عمر فقال:" ضيق النفس الذي كان به أدركه يوما وهو في السوق فوقع، ودار الناس حوله يقولون: مصروع، مصروع. ! فبين قارئ ومعوذ من الجانّ، فلما أفاق من غشيته نظر إلى ازدحامهم فقال: ما لي أراكم تتكأكئون على تكأكؤكم على ذي جنة!. افرنقعوا، فسمع أحد الجمع وهو يقول: إن جنيه هذا يتكلم بالهندية."[11]

إن عدم معرفة الأعاجم بالمفردات العربية، أدى بهم إلى انتسابها إلى اللغة الهندية مما يسرب اللحن إلى اللغة الأم ويعيق مسارها، كما كان لاتساع الرقعة الجغرافية أثر في ذلك فبدأت الملامح الإسلامية تظهر في البلاد المفتوحة من مساجد ومعسكرات، سواء في البلاد الفارسية أو التركية أوالهندية...الخ، فوقع احتكاك بين الجنسين العربي والأجنبي وتبلور عامل العلاقات الاجتماعية والأسرية، إضافة إلى

دخول عنصر المرأة الأجنبية في حياة الفرد العربي، فظهرت عوائل مزدوجة الجنسية مما سهل وفتح الطريق أما اللحن دون مقاومة،ووفي هذا الصددنمثل بقول أبو الحسن في نطق الحاء هاءً، والعين ياءً فقال:" أهدي إلي فيل مولى زياد حمار وحش، فقال لزياد: أهدوا لنا همار وهش قال: أي شيء تقول ويلك؟. قال: أهدوا إلينا إيراً -يريد عيراً – قال زياد: الثاني شر من الأول"[12]

كما تسرب اللحن أيضاً إلى القراءات القرآنية، نذكر الرواية التي ساقها صاحب نزهةالألباب على لسان الخليفة عمر بن الخطاب، ومفادها أن أعرابياً قدم إلى المدينة في خلافة عمر فقال:" من يقرئني شيئاً مما أنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فأقرأه رجل فقال:چ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ چ چ[13]،بكسر اللّام لرسوله الثانية فقال الأعرابي: إن يكن الله بريئاً من رسوله، فأنا بريء، أو أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة ذلك الأعرابي، فدعاه فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة وقص القصة عليه، فقال عمر:" ليس هكذا يا أعرابي، فقرأها له بوجهها الصحيح"[14]، فأصبح كل واحد يقرأ حسب لهجته أو حسب ما يسمع من مجالس حلقات الدروس.

وعن وقوع اللحن في اللغة المحكية، فالأخبار كثيرة جداً عنه، واللغة المحكية كانت معربة ولاسيما في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وقد كانت تتساهل في بعض الظواهر الإعرابية، فقد قال الفراء(207ه) لهارون الرشيد يعتذر عن لحن وقع منه في حضرته:" إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللّحن، على أن اللحن في اللغة المحكية بدأ قليلاً، ثم ما لبث أن توسعت دائرته، وفيما روي لنا من اخبار اللّحن ما يقطع بذلك، ومعظمه منقول عن الجاحظ وهو من القدماء الذين أدركوا عصر الخليل وسيبويه"[15]،فمما روي من لحن الوليد بن عبد الملك أنه قال لغلامه:" يا غلام رد الفرسان الصادان عن الميدان" على حين ظلت لغة البداة سليمة من اللّحن، لهذا كان هدف النحاة السعي وراء الاستنباط."[16]

بقيت اللغة خالية من اللحن إلى غاية القرن الرابع للهجرة(4ه)، حتظهر في الدولة الأموية فأصبح القرآن عرضة لذلك، كما أن اعتزاز العرب باللغة والهوية العربية التي يُعرف بها العربي، أدى بهم إلى التفكير في حل هذا المشكل، وأصبح الخوف منه واضحاً من أن يتسرب إلى لغتهم فيحدث فساداً في الألسن فتذهب اللغة الأصلية ولا يبقى منها إلا اسمها، وخاصة حين امتزجوا بالأعاجم وهم لديهم لغاتهم الخاصة بهم.

هذه الأسباب جعلت النحاة العرب يبحثون عن حلول سريعة لهذه الظاهرة، فعملوا على رصد الظواهر اللغوية وتقعيد القواعد النحوية، التي كانت أساسا لبروز علم النحو، وفي هذا الصدد يقول الجاحظ:" ثم اعلم أن أقبح اللحن، لحن أصحاب التقعير والتعقيب والتشديق والتمطيط والجوهرة والتفخيم، وأقبح من ذلك، لحن الأعاريب النازلين على طرق السائلة، وبقرب مجامع الأسواق."[17]

أصبحت العرب تنفر من اللحن ومن مجالسه، ومن قائليه من الأعاجم أو من العرب أنفسهم، فوقفوا عازمين على نبذ هذه الظاهرة، واستخراجها من المجتمع حتى لا تضعف من هيبتهم ومن رفعتهم، فانبرى لها أهل اللغة والنحو وعملوا بالتعاون بين الطرفين؛ أي: الأول يقوم بجمع المادة، والثاني بالتصرف فيها، لأجل استنباط قواعد تصون لهم اللغة من هذه الظاهرة.

ب–مصطلح العربية:

بعد ظهور مصطلح اللحن في الوسط اللغوي، استدعى بالضرورة ظهور مصطلح العربية ومعناه اللغة العربية السلمية الخالية من كل خطأ، ثم ارتقى وأصبح يطلق على المبادئ الأوليةللنحو فقال أبو عبيدة معمر بن المثنى التيْمي(ت210ه)"أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب العربية"[18] ونجد هذا المصطلح في كتاب سيبويه إذ يقول:"هذا باب علم ما الكلم من العربية."[19]

كان السلف يحث أبناءهم على أخذ العربية لأنها تحكم المعقول، كذلك فعل الخلفاء الراشدين إذ كانوا دائما ينصحون بالعربية، لأنها تمثل طابع المروءة الظاهرة والفطنة، ولأبي شبرمة قولٌ في فضل تعلم العربية فيقول**:**" إذا أسرك أن تعظم في عين مَنْ كُنْتَ في عينه صغيرا"، ويَصْغُر في عينك عظيمًا، فتعلم العربية، فإنها تُجريك على المنطق وتُدينك من السلطان"[20]

ج– مصطلح النحو:

بعد ظهور مصطلح العربية أدى بالضرورة ظهور مصطلح النحو، فهو مستنبط من اللغة العربية نفسها فكان لأبي الأسود دور في ذلك إذ قال:"أنح هذا النحو أي اقصده، والنحو القصد فسمي لذلك النحو"[21]ويقول ابن منظور أنه:" بلغنا أن أبا الأسود الدولي وضع وجوه العربية وقال للناس أُنْحو نحوه فسمي نحواً."[22]

بدأ مصطلح النحو ينتشر في القرن الثاني للهجرة (2هـ) فأبو الأسود الدولي هو أول من سار في هذا الطريق ولكنه لم يسمه نحواً، بل كان يستعمل معناها اسم"أنح هذا النحو" أي أسلك هذا الطريق، ويردف اللسان أن:النحو:إعراب الكلام العربي والنحو: القصد والطريق... ونحو العربية منه، إنما هو انتحاءَ سَمت كلام العرب في تصَرفه من إعراب غيره"[23]وتكمن فائدة تعلم النحو استعماله عند الحاجة، كما يُمكنُ الفرد من نطق اللغة نطقًا صحيحًا على شاكلة ما نطق العرب من صواب، وكذلك التكلم بكلام العرب بطلاقة وقراءة كتاب الله عز وجل، إضافة إلى معرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم.

د– مصطلح الإعراب:

للإعرابمفهومان الأول أنه" روي عن انس بن مالك(ت179هـ) أنه قال: الإعراب حلي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها"[24] وبهذا يكون قد ارتبط بإعراب القرآن الكريم، والثاني أنه بمعنى النحو حيث جاء في لسان العرب أن " النحو إعراب الكلام العربي."[25]

رأى النحاة أن الإعراب به علامات فقال بعضهم:" ألقاب الإعراب أربعة: رفع ونصب وجر وجزم وألقاب البناء ضم وفتح وكسر ووقف"[26]،ويرى الزجاجي أن:"المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكة الأسفل إلى الأعلى، ويجمع بين شفتيه والمتكلم بالكلمة المنصوبة يفتح فاه فيبين حنكة الأسفل من الأعلى، فيبين إلى الناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانة احدهما عن صاحبه...وإما الجر فإنما سمي بذلك لانخفاض الحنك الأسفل عن النطق به وميله إلى إحدى الجهتين، وأما الجزم فاصله القطع يقال جزمت الشيء وجذمته ...فكان معنى الجزمقطع الحركة عن الكلمة هذا أصله."[27]

وقد فرق سيبويه بين الحركات الإعرابية وحركات البناء فقال:" وهي تجريعلى ثمانية مجاري: على النصب والجر والرفع والجزم والفتح والضم والكسر والوقف، وهذه المجاري الثمانية يجمعهن في اللفظ أربعة أضرب: فانصب والفتح في اللفظ ضربٌ واحد، والجر والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضم والجزم والوقف."[28]

إن اللحن هو الخطأ في العربية؛ أي: عدم تكلُمها جيداً ونطقها على الأساس الصحيح، وهو موجود في اللغة العربية، والعربية تُصان بالنحو الذي أشتق منها ويحمها، فقد جاء لردع اللحن وحماية العربية، إذا فهي حلقة دائرية متواصلة بين المصطلحات الثلاثة، اللحن أوجد العربية، والعربية أوجدت النحو، والنحو يحارب اللحن ويحمي العربية، إذن فالعربية هي المصطلح الذي انبثق منه اللحن والنحو، وهكذا نجد أن اللحن هو السب الأساس في تعليم النحو، فكانت مرحلة تعليم النحو فترة قصيرة، إلا أنها ساهمت في ولادة مرحلة جديدة هي مرحلة التقعيد النحوي ومصطلحاته.

2- مرحلة التقعيد النحوي:

ساعد في قيام هذه المرحلة عدة عوامل مهمة ساهمت في تبلور النحو ووضع قوانينه، حيث تم وضع الركائز العامة للنحو انطلاقاً من اللبنة الأولى له، فكان للنحو كيان كلي يصونه من كل الشوائب.

أ- القياس:

القياس في أصول الفقه منهج يعتمد عليه الفقيه في وضع القوانين، التي تساعد الفرد على أداء نشاطه إلا اجتماعي والاقتصادي والديني داخل المجتمع بحكم قوانين تساعد في ذلك، نجد مثلا "الخمر" الذيُ يذهب عقل الإنسان فيه أحكام خاصة وتقاس عليها في كل زمان ومكان، ويقول الشافعي:" صار الخلفاء – وقد ظالما اشتوروا- كمثل ما اشتوروا في حد الخمر وأخذ وافيه برأي على قال : إذا شرب سكر- وإذا سكرى هذى- وإذا هذى افترى فحده حد المفترى"[29]، قيس على الخمر كل ما يأخذ العقل إلى الهلاك ويغطي أو يحجب عنه الصواب مثل المخدرات، أما التعليل فالخمر تؤدي إلى الفتنة والنزاع كما جاء في قوله تعالى:چ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک چ"[30]

أخذ القياس يأخذ مجراه عند النحاة العرب، باعتباره الوسيلة الأساسية في التقعيد النحوي وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي من الأوائل الذين استخدموا القياس وقد قال عنه الزبيدي:" هو أول من بعج النحو، ومد القياس، وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس في النحو."[31]

وقد عرفه الجرجاني بقوله:"عبارة عن التقدير: يقال قست النعل بالنعل إذا قدرته وسويته، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره"[32]، والقياس هو حمل كلام العرب غير المألوف على ما ورد ووصل إلينا من لغاتهم، ويقول ابن الأنباري عن النحو:" أنه علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب"[33]وتظهر العلاقة الجدلية بين النحو كعلم والقياس كمنهج، فالنحاة استعملوا القياس في الأوزان فقاسوا كل ما هو على: وزن(فعالة) فهو حرفة نحو: تجارة، حِياكة، كذلك صيغة "تفاعل"تدل على المشاركة: تضارب، وتدل أيضا على التظاهر بالشيء مثل تجاهل، تفاعل، ومنه فإن أصول الفقه أعطت للنحو العربي الطابع العقلي، الذي يعتمد على الاستدلال والبحث.

ب- اللهجة:

مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة حاصة،ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة،وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها،ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة."34

نأخذ على سبيل المثال لا الحصر المثنى والملحق به:

يقول السيوطي:" المثنى هو ما دل على اثنين بزيادة في آخره صالح للتجريد عنها، وعطف مثله عليه، فإنه يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء، نحو (قال رجلان)، ولزوم الألف في الأحوال الثلاثة لغة معروفة عزيت لكنانة وبني حارث بن كعب وبني العنبر وبني الهُجيْم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيدوخَثْم وهمدان وفَزَارة وعُذْرة، وحُرّج عليها قوله تعالى:چ □ □ □ چ35

ثم ذكر السيوطي أنه" يلحق بالمثنى في الإعراب ألفاظ تشبهه، وليست بمثناة حقيقة لفقد شرط التثنية... منها كلا وكلتا بشرط أن يضافا إلى مضمر، نحو قوله تعالى:چ ٹ ٹ ٹ ۋ ۋ ۅ چ36، وتقول رأيت كليهما، فإن أضيفا إلى مضمر أجريا بالألف في الأحوال كلها، هذه هي اللغة المشهورة، وبعض العرب يجريهما مع الظاهر مجراهما مع المضمر في الإعراب بالحرفين، وعزاها الفراء إلى كنانة، وبعضهم يجريهما معهما بالألف مطلقاً."37

وذكر السيوطي أيضاً" من العرب من يجعل الإعراب في المثنى على النون إجراء له مجرى المفرد، حكى الشيباني: هذانِ خليلانُ"38، ونخلص القول أن في إعراب المثنى ثلاث لهجات تمثل ثلاث قواعد نحوية سائدة تدور بين القبائل العربية وهي:

اللهجة الأولى وهي الأكثر شيوعاً وتعربه بالحروف، وتمثلها القبائل التميمية والحجازية،واللهجة الثانية تعربه بالألف رفعاً ونصباً وجراً، والثالثة لهجة تعربه بالحركات على النون، وقيل الحركات المقدرة على الحرف الأخير من المفرد، فهذا يبين الانتشار الواسع للهجة في الجزيرة العربية، واستعملها عدد كبير من العرب،وبهذا يكون التنوع اللهجي بين قبائل العرب في إعراب المثنى، وبالتالي تنوع القواعد التي تحكمه، وهكذا يكون للهجات دور فعال في تقعيد القواعد وتقنينها.

ج– العلة:

مرَّرت العلة النحوية منذ ظهورها بثلاث مراحل وهي على النحو الآتي:

1–المرحلة الأولى: وهي مرحلة النشأة للعلة النحوية " ويمكن أن يعدّ أباها الشّرعي عبد الله بن إسحق الحضرمي وتنتهي هذه المرحلة بالخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي يمكن أن يطلق عليه– دون تجوّز كبير– قمة التعليل في النحو في هذه المرحلة، وخاتمته معاً، إذ استطاع أن ستنبط من علل النحو لم يستطيع أحدٌ ولم سيبق إليه"[39]، ومن أهم مميزات هذه المرحلة أنّ" العلة في هذه الفترة تمثل مرحلة السهولة والوضوح، وعدم التكلف، وكات وليدة قريحة القائل بها، بعيدة عن الفلسفة، وقريبة من روح اللغة، وحسّها المرهف الذي ينفر من القبح والثقل."[40]

وقد تأثر التعليل النحوي في هذه المرحلة بمدلوليّ المادة اللغوية حيث يبحث أولاً: في تفسير الأسباب الكامنة وراء حدوث الظواهر اللغوية المؤدية إلى تقعيد القواعد النحوية، وثانياً: البحث وراء الأغراض الثانوية الناتجة عن هذا البحث وهو ما يستفيده النحاة من متعة نفسية وذهنية."[41]

2–المرحلة الثانية: وتبدأ هذه المرحلة بتلاميذ الخليل وتنتهي بالزجاج، حيث تمتد هذه المرحلة إلى أوائل القرن الرابع"[42]، وقد كثر في هذه الفترة التأليف في العلة النحوية، فقد ظهر كتاب الزجاجي الإيضاح في علل النحو، وكتاب الخصائص لابن جني، وغيرهما"[43] كما كانت الصلة قوية بين علل الفقه والنحو ويضيف ابن جني قائلاً:" وكذلك كُتُبُ محمد بن الحسن رحمه الله، إنما ينتزع من أصحابها منها العلل، لأنهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه فيُجمع بعضها إلى بعض.."[44] ومن أهم خصائص العلة في هذه المرحلة، أنَّ التعليل النحوي، أصبح يضم الظواهر الجزئية في إطار كليّ، مثل تفسير الحركة الإعرابية–ككل– تفسيراً صوتياً، أو دلالياً."[45]

3–المرحلة الثالثة: تعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل التعليل النحوي حيث حدث تغيير في منهج التعليل، وعلاقته بالتقعيد النحوي، فقد أثر الاتصال بثقافات الأمم الاخرى غير العربية تأثيراً كبيراً، واتصل الفكر العربي بالفكر الإنساني على نطاق واسع في هذه الفترة، وخصوصاً عن طريق الترجمة، لأن الأمر الذي مكّن لهم مَزج ثقافتهم والتي من ضمنها منهج التعليل النحوي، ومن خلال هذا الامتزاج بالثقافات الأخرى، وقف علماء العربية من هذه العلوم المترجمة موقفاً يقوم على تحليل الفكر، ومناقشته ليتضح الصالح منه، ثم مزجه بالفكر العربي والارتقاء به، ونبذ المشوش، والذي لا تقبله الثقافة العربية، وكشف مساوئه"[46]، ومن أهم خصائص التعليل في هذه المرحلة، أنها لا تتقيد بالموجود بالظواهر اللغوية؛ أي: أنها لا تقف عند تفسير ظواهر لغوية معروفة بالفعل بل تتعداها إلى علل فرضية تعتمد الفرض العقلي ثم يوضع لها التعليل"[47]

بظهور الإسلام ازداد اهتمام الناس بالعلوم الشرعية والدينية، واكتظت حركة النشاط المعرفيوالعلمي، فارتقى العقل العربي إلى التفكير في المسائل الأكثر تعقيداً، فوجهوا اهتمامهم إلى معرفة علوم الحضارات الأخرى وتاريخها، وقد ساعد على ذلك القرآن الكريم بما

يحوي من قصص للأنبياء والأمم الغابرة، مما ساعد على تطور ثقافة الفرد المسلم، فأصبح ينظر إلى الأشياء نظرة تساؤل يبحث فيها عن إجابة لسؤال قائم لم يعرف أسبابه بعد.

كما جاءت فيه نصوص استوجبت استعمال القياس العقلي والديني مثل قوله تعالى:ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﭼ[48] هي أوامر الرحمن تحث العبد على التأمل في الكون، للوصول إلى وحدانية وقدرة الله تعالى،فأصبح التعليل في صدر الإسلام حتى العصر العباسي يتطور حيث صار العقل العربي ينحو منحى آخر مشتملاً على الدقة والتمييز، بحثاً عن التطور والفهم العميق لِمَا جاء في القرآن الكريم من جهة، ومن جهة الدفاع عنه فبدأت بالقراءات التي ينعدم فيها الجانب العقلي ولم تعرف التعليل قط، ففي هذه الفترة كانت العلوم (ق1هـ،ق2هـ) قد اكتست منهج علم أصول الفقه وعلم الكلام، كما كان القرآن الميدان الخصب لوجود الكثير من الآيات التي تدل على التفكير وأعمال العقل في نحو قوله تعالى:ﭽ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﭼ[49]

يقول الزجاجي :"قال قائل قد ذكرت إن الأفعال عبارة عن حركات الفاعلين، والحركة لا تبقى وقتين وأصحابكم البصريون يعيبون على الكوفيين القول بالفعل الدائم لهذه العلة نفسها"[50]وقدتفطن النحاة القدامى للعلل النحوية وحصروها في ثلاثة أنواع:

1-العلة التعليمة: فهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، لأنا لم لا يسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظا، وإنما سمعنا بعضنا فقسنا عليه نظيره"[51]، مثل قام زيد: بماذا رفع زيد؟. بالضمة، ولماذا رفع؟. لأنه فاعل، والفاعل يرفع بالفعل الذي أشغل به.

2-العلة القياسية:" فإن يقال لمن قال نصبت ريدا بأن في قوله: إن زيد قائم. ولم وجب أن تنصب إن الاسم؟. فالجواب في ذلك أن يقول لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول فحملت عليه فأعملت إعماله بما ضارعته" [52]

3-العلة الجدلية:" فكل ما يعتل به في باب إن بعد هذا مثل أنُ يقال: فمن أي وجهت شابهت هذه الحروف الأفعال؟. وبأي الأفعال شبهتموها؟.أبا لماضيه أم المستقبل"[53]، وهذه العلة هي التي تكون وسيلة للاختبار والتناظر بين العلماء"[54]ومن أهم المناظرات النحوية التي كانت حاضرة في الميدان النحوي وأشهرها مناظرة " المسألة الزنبورية" بين سيبويه والكسائي حيث انتصر فيها الكسائي عليه في حضرة الخليفة هارون الرشيد، وتحضرنا هنا مناظرة الكسائي وعيسى بن عمر الثقفي" إذ سأله فقال له الكسائي: "كيف تقرأ هذا الحرف ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[55] ماذا ؟ قال يرتَعْ ويلعبيوسف"،فقال له عيسى بن عمر: لم لمْ تقرأها يرتعي ويلعب، فثبت الياء أو تشير إليها؟. فقال له الكسائي: إنما هي من رتعْتُ لا من رعبت، فقال له عيسى بن عمر صدقت يا أبا الحسن"[56]

وكذلك مناظرة يونس مع عبد الله بن أبي إسحق، إذ قال أبو عبيدة " مضيت إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي فقلت له: كيف تقرأ:"فإذا برق البصر" [57]" فقال : فإذا برَقَ البصر وفتح الراء، فقمت من عنده إلى أبي عمرو فقال: من أين لك؟ فقلت من عند عبد الله بن إسحاق الحضرمّي سألته كيف تقرأ " فإذا برق البصر فقال: فإذا برق البصر بفتح الراء، فقال أبو عمرو وأين يراد به، يقال بَرَقت السماء وبرق النبت وبرقت الأرض فأما البصر فبرِق كذا سمعنا، ومثله ما حدثنا محمد بن أبي سعيد عن ابن الرّومي...فقال أحدهما برَق البصر وقال الأخر بَرَق: قطع عليهما أعرابي من بيني فزارة فسألاه فقال لا أقول شيئا مما قلتما ولكن أقول بَلق البصر... وقد تبدل العرب من الراء في كثير من كلامهم فيقولون: متاع رشيد ولثيد."[58]

كانت المناظرات الميدان الخصب الذي يظهر فيه علماء النحو قدراتهم النحوية والفكرية، حيث كان هذا الجدال بين نحاة البصرة والكوفة مما أدى إلى ظهور روح التعصب في كلتا المدرستين، وقد أورد ابن الأنباري هذا الخلاف في كتابه " الإنصاف في مسائل الخلاف".

إن خير من أشار إلى أن العلل ظاهرة طبيعية عند الإنسان، هو الخليل من أحمد الفراهيدي حين سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو:"أعن العرب أخذها أم اخترعها من نفسه؟، أجاب سائليه: إن العرب نطقت على سجيتها وضياعها، وعرفت مواقع كلامها، قام

في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست... فإن سنح لغيري علة لما عللته من النحو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها"[59]

يمثل التعليل جوهر الدرس النحوي عند العرب، ويعتبر من الأصول الأولى للنحو العربي، كما أن التعليل بدأ يتطور وينضج شيئا فشيئا منذ أن قام به ابن إسحاق،فالعلة النحوية علة طبيعة نتيجة للعملية الاستقرائية التي تقوم على المادة اللغوية حيث"كان الجدال بين المسلمون والنصارى واليهود قوياً جدًا حول قضية أي الديانة أحسن؟.فانبرى لهم المعتزلة وقاموا بالدفاع عن الإسلام، فتسلحوا بنفس السلاح الذي تسلح به خصمهم وهو الفلسفة، فأقبلوا عليها دارسين بأفكارها أخذين، فأخذوا المنطق اليوناني ودمجوه في حججهم وبراهينهم، وهكذا نتج عن دخول الفلسفة والمنطق اليوناني تبلور فرق خاصة بالفقه وفرق خاصة بالنحو، وكانت المدرسة البصرية تتسم بالالتزام بأحكام العقل حتى سُمي نحاة البصرة بأهل المنطق"[60] عندما ساعدوا على دخول الحكمة الأجنبية ، فأدى تأثير علم الكلام في اللغة إلى انتقال النحو من التعليم إلى التقعيد، فالتزم العلماء عن البحث عن السبب الذي أدى إلى النتيجة وهو ما يسمى بالتعليل، وهو الطابع العلمي الفلسفي حيث تم فيه تقعيد القواعد وتقنينها.

خاتمة:

بينت الدراسة النتائج الآتية:

1- تميزت المرحلة الأولى للنحو ببروز مصطلحات تعد اللبنة الأساسية لقيامه،

2- اللحن هو السبب الرئيس في بداية تعليم النحو، بسبب دخول الأعاجم إلى الإسلام سهل من انتشار هذه الظاهرة.

3- ظهور مصطلح اللحن أدى بالضرورة إلى ظهور مصطلح العربية الذي يعني العربية الخالية والسليمة من الخطأ.

4- مصطلح العربية كان السبب في ظهور مصطلح النحو، وبعدها جاء مصطلح الإعراب للوقوف على حركات الرفع والنصب والخفض.

5- تميزت المرحلة الأولى للتعليم بأربع مصطلحات وهي: اللحن أوجد العربية، والعربية أوجدت النحو، والنحو يحارب اللحن ويحمي العربية، وبعدها يأتي الإعراب ليبين اللحن، ويكون متضمنا في العربية، ويكون بمعنى النحو.

6- تميزت المرحلة الثانية بعوامل هامة ساعدت على التقعيد وهي القياس والعلة، كما شملت المناظرات النحوية بين النحاة،وتميزت بعامل اللهجة والعلة اللتان كانت لهما دور فعال في التقعيد النحوي.

7- يبقى اللحن العامل الأساس في انتقال النحو من التعليم إلى القعيد، لأن النحاة رأوا أن العرب الأقحاح ينطقون اللغة بالسليقة، أما الاعاجم فلا يتوفر فيهم هذا الشرط، عندئذ أدركوا أن التقعيد للقواعد هو الذي يحفظ اللغة، ويساعد الأجانب على تعلمها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص.

1- إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003.

2- أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري: الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1987.

3- أبو البقاء عبد الله الحسيني العكبري(538-616)، اللباب في البناء والإعراب، تح غازي مختار طليمات، دار الفكر دمشق، بيروت لبنان (ط1)، 1990.

4- جلال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي(ت624ه): إنباه الرواة على أنباه، تح أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي، القاهرة، (ط1)،1986.

5- جلال الدين السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو: تقديم محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية،جامعة طنطا، 2006.

6- جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحعبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية،الكويت، (ط1)، 1980.

7- حسن عون: اللغة والنحو، مطبعة رؤيال،الإسكندرية،(ط1)، 1956.

8-أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة،(دت).

9- أبو سعيد الحسني بن عبد الله السيرافي: أخبار النحويين البصريين، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيللنشر والطباعةوالتوزيع، بيروت لبنان، (ط1)، 2004.

10- الشريف الحسن علي بن محمد بن علي الحُسني الجرجاني الحنفي (ت816هـ) التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (ط2)، 2003.

11- أبو الطيب عبد الواحد اللغوي الحلبي (ت51هـ): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق أبو الفصل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها الفجالة، القاهرة،(دت).

12-عبد الحليم الجندي: الإمام الشافعي ناصر السنة واضع الأُصول،دارالمعارف، القاهرة،(ط2)، 1119.

13-عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: مجالس العلماء، تح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي،(ط3)،(دت).

14- عبد القادر رحيم الهيتي: خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، جامعة قان يونس، بنغازي ليبيا، (ط2)، 1993.

15- أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (ط7)،القاهرة، 1998.

16- عثمان بن قنبر سيبويه:الكتاب، عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، (ط3)، 1983.

17- علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية دار العلم، بيروت، 1973.

18- أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص: تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ط2)، 1952.

19- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري:لسان العرب، دار صادر، بيروت، (ط1)،(دت).

20- أبو القاسم الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، تح مازن مبارك، دار النفائس، (ط3)، 1979.

21- مجد الدين ابن السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر،تح محمود محمد الناجي، دار إحياء التراث، بيروت، (دت).

22- محمد خير الحلواني: المفصلفيتاريخنشأةالنحوالعربي، مؤسسةالرسالة، (ط1)، بيروت، 1979.

23- أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ):عيون الأخبار كتاب العلم والبيان، تح لجنة بدار الكتب المصرية، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ط2)،1996.

24- مصطفى عبد الرزاق، تاريخ الفلسفة الإسلامية، القاهرة،1944.

الهوامش:

[1]: حسن عون: اللغة والنحو، مطبعة رؤيال (ط1)، الإسكندرية، 1956، ص 78.

[2]:المرجع نفسه: ص 148.

[3]: أبو الطيب عبد الواحد اللغوي الحلبي (ت51هـ): طبقات النحويين واللغويين، تح أبو الفصل إبراهيم مكتبة نهضة مصر ومطبعتها الفجالة، القاهرة، (دس)، ص13.

[4]: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري:لسان العرب، دار صادر، بيروت، (ط1)، (دت)،مادة لحن.

[5]: سورة محمد: الآية 30.

[6]: أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري: الأضداد، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1987، ص 238.

[7]: مجد الدين ابن السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، تح محمود محمد الناجي، دار إحياء التراث، بيروت (دت)، ص242.

[8]: الأضداد: ص245.

[9]:المصدر نفسه: ص244.

[10]: الزبيدي: طبقات النحويين، ص11.

[11]: جلال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت624هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة تح، أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي (ط1)، ج1 القاهرة .1986، ج1، ص377.

[12]: أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (ط7)، القاهرة، 1998، ج2، ص213.

[13]: سورة التوبة: الآية 03.

[14]: محمدخيرالحلواني:المفصلفيتاريخنشأةالنحوالعربي،مؤسسةالرسالة،(ط1)، بيروت، 1979، ج1، ص23.

[15]: البيان والتبين: ج1، ص332.

[16]: المفصلفيتاريخنشأةالنحوالعربي: ص24.

[17]:البيان والتبيين: ج1، ص146

[18]: أبو سعيد الحسني بن عبد الله السيرافي: أخبار النحويين البصريين، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيللنشر والطباعةوالتوزيع، بيروت لبنان،(ط1)، 2004، ص67.

[19]: عثمان بن قنبر سيبويه:الكتاب، تح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، (ط3)، 1983، ج1، ص12.

[20]: أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ):عيون الأخبار كتاب العلم والبيان، تح لجنة بدار الكتب المصرية، دار الكتب المصرية، (ط2)، مج2، القاهرة، 1996، ج1، ص196.

[21]: أبو القاسم الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، تحمازن مبارك، دار النفائس، (ط3)، 1979، ص89.

[22]:اللسان: مادة نحا.

[23]:المرجع نفسه: مادة نحا.

[24]: طبقات النحويين واللغويين: ص13.

[25]:اللسان: مادة نحا.

[26]: أبو البقاء عبد الله الحسيني العكبري(538-616)، اللباب في البناء والإعراب: تح غازي مختار طليمات، دار الفكر دمشق بيروت لبنان، (ط1)، 1990، ج1، ص60.

[27]: الإيضاح في علل النحو: ص93.94.

[28]: سيبويه: الكتاب، تحعيد السلام محمد هارون عالم الكتب القاهرة، (ط1)، 2000، ج1،ص13.

[29]: عبد الحليم الجندي: الإمام الشافعي ناصر السنة واضع الأُصول، دار المعارف، القاهرة، (ط2)،1119، ص250.

[30]: سورةالمائدة: الآية 91.

[31]: طبقات النحويين واللغويين: ص32.

[32]: الشريف الحسن علي بن محمد بن علي الحُسني الجرجاني الحنفي (ت816هـ) التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، (ط2)، 2003، ص181.

[33]: جلال الدين السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو: تقديم محمود سليمان ياقوت دار المعرفة الجامعية، جامعة طنطا، 2006،ص206.

[34]: إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003، ص16.

[35]:سورة طه: الآية 63.

[36]: سورةالإسراء: الآية 23.

[37]:جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح عبدالعال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت،(ط1)،1980،ج1، ص260.

[38]: ينظر: أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة،(دت)،ج1،ص104.

[39]: علي أبو المكارم: أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية دار العلم، بيروت، 1973، ص165.

[40]: عبد القادر رحيم الهيتي: خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، جامعة قان يونس، بنغازي ليبيا، (ط2)، 1993، ص185.

[41]: ينظر: أصول التفكير النحوي: ص167.

[42]: ينظر: المرجع نفسه: ص169.

[43]: خصائص مذهب الأندلس النحوي، ص187.

[44]: أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص: تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ط2)، 1952، ج1، ص163.

[45]: ينظر: أصول التفكير النحوي: ص153.

[46]: ينظر: خصائص مذهب الأندلس النحوي: ص186.

[47]: ينظر: المرجع نفسه: ص195.

[48]: سورةالغاشية: الآية 17، 18.

[49]: سورةالبقرة: الآية 219.

[50]:الإيضاح: ص86.

[51]:المصدر نفسه: ص64.

[52]:المصدر نفسه: ص64.

[53]: المصدر نفسه: ص65.

[54]: خصائص مذهب الأندلس النحوي: ص184.

[55]: سورة يوسف: الآية 12.

[56]: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: مجالس العلماء، تحق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (ط3)، القاهرة، 1999، ص201.

[57]: سورة القيامة: الآية 7.

[58]: مجالس العلماء، ص189.

[59]: الإيضاح: ص64.

[60]:مصطفى عبد الرزاق، تاريخ الفلسفة الإسلامية، القاهرة،1944، ص38.